الفصل الثاني عشر

في الرحلة العلمية من قنا إلى الأقصر أبي الحاج

كيلو متر

٣٥ من قنا إلى نجاده (نقاده).

٢٥ من نجاده إلى الأقصر أبي الحجاج.

٧٠٦ من بولاق مصر إلى الأقصر.

ليس بين مدينة قنا وقرية الأقصر آثار تستحق الذكر لأن جميع ما بالقرى المحصورة بينهما قد محتها الدهور وكرت عليها العصور ولم تبق منها إلا بعض أحجار غفل مطروحة شذر مذر بين المزارع أو مبنية في منازل الفلاحين.

أما قرية الأقصر التي هي والكرنك والقرنة ومدينة أبو أوهبو فكانت عبارة عن مدينة طيبة القديمة عاصمة المملكة المصرية وتخت الدولة الفرعونية مدة أجيال طويلة.

فما لي أراك أيها القلم وقفت بين أناملي حائراً منبهتاً كأنك عجزت عن وصف آثار أم القرى

أو خلته حديثاً يفترى أما سبق لك وصف مثلها في هذا الكتاب أما أفرغت فيه ما كان بالوطاب أما أجليت في سطوره عرائس الأفكار وتطمت في جيده درر الأخبار أما إسترسلت في سيرة المصريين وأثبت فيه ما كان لهم من غث وثمين هيا أيها اليراع هيا صف لنا الآثار وتهيا ولا تخجل من تقصيرك فإن الله نصيرك وأقصص علينا من بعض الأنباء وما كان الغرض من تشييد هذا البناء وإقتطف لنا من ملح المؤلفات وذكرنا بأعمال من قدفات وقل لنا بحق من براك وهو في كل يوم يصلحك ويراك ما أصل هذه العمارات وما فائدة تلك المغارات ومن الذي أقام هذه المسلات التي صبرت على كيد الزمان بعدما خان أهله ومان وما أصل هذه الكيمان وما هذه النقوش والألوان ولماذا هذه التماثيل العديمة المثيل وما هؤلاء الكباش الحجرية والأصنام الصخرية وما كان الغرض من هؤلاء الأبراج والأبواب التي سمت إلى السحاب وإندهشت من رؤيتها أولو

الألباب وأبدت لنا نقوشها العجب العجاب فأخبرني بالصريح وأعلمني بكل قول صحيح ولا تخض إلا في أصدق الحديث من القديم والحديث وإنتقل بى على الترتيب يا ذا النبيء الغريب.

إعلم أن هذه العاصمة القديمة قد اشتغل بها أقلام جميع أرباب السير والتواريخ ولم يذكر أحد منهم زمن بنائها ولا اسم بانيها حتى أن كهنتها الذين كان لهم أعظم باع في العلوم والسير لم يذكروا عنها شيأ من هذا القبيل وقال ديودور الصقلي أنها أقدم مدينة بمصر وقال غيره أنها من تأسيس الملك (منا) رأس الفراعنة ويؤخذ من قول هيرودوت أنها بنيت قبل الميلاد بنحو اثنى عشر ألف سنة ولا يخفي ما في ذلك من المبالغة الخارجة عن حد الصدق ولم يذكر لنا من وصفها شيأ يعتد به والظاهر أنه ما دخلها عند سياحته بمصر ومساحة خرابها قدر مساحة مدينة باريس تقريباً وذكر ديودور أن آثار هذه المدينة تمتد على شاطئ النيل نحو ثمان غلوات (الغاوة نحو مائة متر) وفي الخطط الجديدة أن مساحة الأرض نحو سبعة عشر مليوناً ومائتين وستين ألف متر مربع ومساحة أرض القاهرة نحو سبعة ملايين من الأمتار المربعة أي أقل من نصفها والآثار الباقية بها الآن تدل على أنها كانت شاغلة بمبانيها الفاخرة شاطئ النيل وممتدة على كل جهة إلى الجبل وكان من بيوتها ما هو مركب من خمس طبقات أو أقل أه ولكن أغلب ذلك تحول إلى أرض زراعية وصار غيطاناً وقال ديودوران ملوك مصر صيروا هذه المدينة من أبهج وأغنى مدينة في مصر بل ما طلعت الشمس على أحسن منها في جميع الدنيا ومعابدها ومبانيها من أغرب ما يرى وما يك شيء يشابه تماثيلها الجسيمة وكثير من آثارها كان مصفحاً بالذهب والفضة أو مطعماً بالعاج وجميعها مشحونة بالمسلات والأعمدة والبواكي التي من حجر واحد يتخللها الشوارع والطرق المنتظمة وبها أربع هياكل تدهش الناظرين ويبلغ ارتفاع سورها ٤٥ قدماً وعرضه ٢٤ ولما استولى قمبيز ملك العجم على مصر نهب جميع ما بها من الذهب والفضة والعاج وحرق هيا كلها وقال استرابون أنه كان لها مائة باب واسمها عند اليونان **Ilevatompylos** (هيكاتو ميبلوس) (وفي القاموس الفرنساوي أن هذا الاسم علم على مدينة طيبة بمصر لأنه كان له مائة باب) يخرج من كل واحد منها ألفان من العساكر الخيالة ولا ريب أن في هذه العبارة شيأ من الكذب أو المبالغة لأن هذا الجيش العرمرم لا يمكن وجوده في أي مدينة مهما كان اتساعها وقال المعلم والس في كتابه مرشد السياح من الإنكليز من المحقق أنه كان بمصر عشرون ألف عربة حربية لأنه كان موجوداً بها مائة إسطبل على الشاطئ الغربي للنيل متوزعة ما بين مدينة منفيس ومدينة طيبة يسع كل واحد منها مائتي فرس وآثارهالم تزل باقية إلى الآن في سفح جبال لبيا وفي

الخطط الجديدة قال بعض شراح (أوميروس) الشاعر اليوناني أنه كان بمدينة طيبة ثلاثة وثلاثون ألف حارة وكان بها مائة باب وعدد أهلها سبعة ملايين من الناس وكان الباب يخرج منه عشرة آلاف راجل وألف فارس ومائة عربة حربية متسلحة للقتال ولا يخفي ما في هذه العبارة من المبالغة التي بلغت أوج سماء الكذب فإن مدينة باريس كانت في سنة ١٨٠٠ ميلادية لا تشتمل على أكثر من ألفي طريق ما بين شارع وحارة ومدينة لوندره ليس فيها إلا عشرة آلاف حارة مع أنه لايوجد مدينة الآن أكبر منها سطحاً بل لا يتصور وجود مليون من العسكر داخل مدينة واحدة فضلًا عن وجود سبعة ملايين من الأهالي والذي يظهر أن هذا الشارح لم يمعن النظر في عبارة المؤلف بل أخذها بدون تأمل فأخطأ أو أن عبارة المؤلف المذكور فيها تحريف والظاهر أن إقليم مصر كله كان يسمى باسم طيبة كما يؤخذ من قول هيرودوت وأرسطاليس فيحتمل أن تكون السبعة ملايين عدد أهالي القطر ويحتمل أن الشارح ترجم لفظة بلدة أوقرية بحارة فإن في مؤلفات تيوكريت أن عدد المدن والقرى بمصر ثلاثة وثلاثون ألفاً وفي وقت الفرنساوية صار حصر عدد البلاد والقرى في جميع القطر المصري فوجد ألفين وخمسمائة وحصرت أهالي القطر فوجدت مليونين وثلثمائة ألف نفس ومسحوا أرضها فوجدوا القابل للزراعة منها ألفاً وثمانمائة فرسخ فرنساوي مربع والفرسخ قريب من مائتين وخمسة وأربعين فداناً مصرياً إلى آخر ما قال (راجع ذلك في الجزء الثالث عشر نمرة ٧٢).

وقال تاسيت المؤرخ أن هذه المدينة كانت مركزاً تجتمع فيه التجارة الواردة من بلاد الهند ثم توزع على البلاد والأقاليم المجاورة كبلاد كنعان وغيرها وكانت الفراعنة تجعل فيها جميع ما تغنمه من الجهات وما تجبيه من الممالك الخاضعة لها ويؤيد ذاك ما هو مسطور الآن على أغلب هياكلها والذي زادها بسطة في المال والثروة وقوعها على جانبي النيل كمدينة باريس ولندرة وكثرة المعابد لأن الناس كانت تؤمها أيام الأعياد والمواسم للزيارة والتبرك بها وتقدم لكهنتها الهدايا والتحف حتى صارت هذه الطائفة في درجة من الغنى لم يشاركهم غيرهم فيها فبنوا القصور وزخرفوها بأنواع الزينة من أموال القرابين والهدايا التي كانت ترد إليهم من جميع الأقاليم وبذلك كانت تزداد مدينة طيبة في كل سنق رونقاً وبهجة وسعة ومن هذا يعلم أنها كانت مركزاً للديانة كما كانت مركزاً للتجارة والإمارة فكم تخرج من مدارسها أرباب أقلام وجهابذة أعلام وقضاة أحكام وكم ظهر منها فاتحون وعلماء راسخون وكم تدون في ربوعها علوم وفنون.

قد ذكرت لنا أيها القلم أن هذه العاصمة كانت في الشهرة والغنى أشهر من نار على علم

مع أننا لم نر بها الآن غير أطلال وكيمان أنبئنا بالله كيف امتدت إليها يد الخراب وكيف تقطعت بها الأسباب ومتى زالت محاسنها ودرست مساكنها حتى صارت أدبر من أمس وأفلت من أوج حضارتها تلك الشمس هل نزل عليها آفة سماوية أهلكتها أو زلزلت بها الأرض فدكتها.

إعلم وفقك الله أن جميع ما ذكرت ممكن الحصول ولا يدري المتأمل ماذا يقول لكن إذا دقق الإنسان نظره في هذا الخراب عرف الجواب وهو أن مصر واد صغير خصب محصور بين ثلاثة جبال وثروته هي آفنه ولاشك أن البدو القاطنين حوله هجموا عليه وفوقوا مهام الدمار إليه فخربوا البلاد وأكثروا فيها الفساد ولما إستولت دولة فارس على هذا القطر النفيس وحرقوا مدينة منفيس تحولوا إلى عاصمة الديار وأوقعوا بها الدمار وبذلوا في خرابها الهمة ولم يرقبوا فيها إلا ولاذمة وبعد خروجهم من مصر قويت فيها الأحزاب وعم الحرب والخراب وفي مدة اليونان تحسنت أحوالها بقدر الإمكان فجاء بطليموس الملقب لاطيروس وعزل أخاه وشد عليها الحصار وأوقع بها الدمار عقاباً لأهلها الذين كانوا من حزب خصمه ثم انضموا مع أمه ثم دخلت الديانة العيسوية وقامت لها الفتن الأهلية واشتدت الحمية المذهبية فخربت البلاد وعم الفساد وكانت عمال القياصرة على أقل سبب تأخذ أموالهم وتقتل رجالهم وفي أيام القيصر تيودوز تخرب ما بقي من معابد هذه المدينة عندما أمر بالتحريج على دين الصابئة.

وقال المؤرخ طيلون أن القيصرالمذكور لم يقتصر على هدم معبد سيرابيس بالإسكندرية بل أمر أن تلق جميع المعابد على الأرض وكذا التماثيل الموجودة بجميع مدن مصر وما بالقصور والسرايات والأرياف وعلى شاطئ النهر ومن ذلك الوقت إنقطع ذكرهذه العاصمة وصارت عبارة عن كفور صغيرة لا يسكنها إلا الفقراء من الفلاحين وإستمرت هكذا إلى يومنا هذا.